السنة الأولى فنون جذع مشترك

السداسي الثاني

المقياس : لغة عربية

الدكتور : عماري علال

المحاضرة الثانية: نشأة علم النحو

عرف العربُ باستعمالهم للسانَهم عن سليقةٍ لم يحتاجوا معها أن يُبينوا قواعدَ نظمِه، وبعد ظهور الإسلام ومخالطتِهم لغيرهم من الأجناس مالت ألسنتُهم إلى اللّحن، والخروج عن أصول الكلام التي ورِثوها عن أجدادهم، فتسرَّب اللّحن إلى ألسنتهم .

وكحرص منهم للحفاظِ على لسانهم المُبِين الذي اختاره الله عز وجل لسانًا للقرآن ووعاءً للرسالة الخاتمة – عمِلوا على وضعِ نحوٍ ينحوه كلُّ دخيل على اللسان ويلتزمه أبناء العربية .

يقول ابن خلدون في هذا الشأن: "إنَّه لَمَّا فسَدت مَلَكة اللسان العربي في الحركات المُسمَّاة – عند أهل النحو –بالإعراب استنبطت القوانين لحفظها كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثيرٌ مِن كلام العرب في غير موضوعه عندهم، ميولًا مع هُجْنَة المُستَعرِبين في اصطلاحاتهم المخالِفةِ لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللُّغوية بالكتاب والتدوين، خشيةَ الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشعر كثيرٌ مِن أئمة اللسان بذلك وأملوا فيه الدواوين (1)

أضِفْ إلى هذا رغبةَ اللغويين في أن يلتحِقَ بهم غيرُ العرب في تعلُّم اللسان العربي؛ ليَسهُلَ عليهم التعامل مع كتاب الله عز وجل تلاوةً وفهمًا ودراسةً، فعكَف العلماء على دراسة أصواتها ومفرداتها ووصف تراكيبها، وأَلَّفوا في ذلك كتبًا لضبطها وتقعيدها، ووضعوا القواعد التي تصف هذه اللسان وصفًا محكمًا ودقيقًا .

النحو اصطلاحًا :

إن أقدم تعريفٍ اصطلاحيٍّ للنحو على الأرجح، هو تعريف ابن السراج، الذي يقول فيه:

"النحو إنما أُرِيد به أن ينحو المتكلِّم إذا تعلَّمه كلامَ العرب، وهو علمٌ استخرجه المتقدِّمون فيه مِن استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة". (2)

أسباب وضع علم النحو

كما سبق ذكره فإنّ اللّغة العربيّة بقيت سليمة من أيّ شائبة تشوبها إلى أن جاء الإسلام وبدأ المسلمون بالفتوحات الإسلاميّة، واحتكّ العرب بالأعاجم، واختلط الحابل بالنّابل، ودخل النّاس من الأعاجم بالإسلام، فوقع في اللّغة العربيّة اللّحن، ولذلك كان لنشأة علم النحو روايتان هما كالآتي:

الرواية الأولى

أنّ أبا الأسود الدؤلي مر يومًا برجل يقرأ القرآن فقرأ قوله تعالى: {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}، فقرأ الرّجل كلمة "رسولهِ" مجرورة ويكون بذلك عطفها على "المشركين" فغير المعنى المقصود من الآية؛ والصواب أن يقرأ "رسولُه" مرفوعةً لوقوعها مبتدأ لجملة محذوفة تقديرها "ورسولُه كذلك بريءٌ"، أو "رسوله" منصوبة بالعطف على اسم الجلالة "الله"، فأسرع أبو الأسود إلى عليّ بن أبي طالب–رضي الله عنه– وأخبره بالخطر الذي تتعرّض له اللّغة العربيّة – فتناول عليّ رقعة ورقيّة وكتب عليها : بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام اسم وفعل

وحرف.. الاسم ما أنبأ عن المسمى.. والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى .. والحرف ما أنبأ عن ما هو ليس اسماً ولا فعلاً. ثم قال لأبي الأسود: انحُ هذا النّحو.

الرواية الثانية

يروى أن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– سمع جاريته تقول: "ما أجملُ السّماءِ"، فقال لها: "النّجومُ"، فقالت له ما هذا أردت، إنّما أردت أن أتعجّب، فقال لها: قولي إذًا: ما أجملَ السّماءَ! ثمّ دخل أبو الأسود الدّؤلي على علي، فوجده يقرأ في رقعة، فقال له: ما هذه؟ فقال علي: إنّي رأيت كلام العرب قد فسد بمخالطة الأعاجم، ولذلك أردت أصنع مرجعًا يرجعون إليه، ويعتمدون عليه، ثمّ دفع بها إلى أبي الأسود وقال له: انحُ هذا النّحو .

نشأة علم النحو وواضعه:

يُعرَف علم النحو بأنه علم بأصول تُعرفُ بها أحوال الكلمات العربية؛ من حيث الإعرابُ، والبناءُ؛ أي: مِن حيث ما يعرِضُ لها في حالِ تركيبِها، فبه نعرِفُ ما يجبُ أن يكونَ عليه آخرُ الكلمةِ من رفع، أو نصب، أو جرٍّ، أو جزم، أو لزوم حالة واحدة بعد انتظامها في الجملة؛ فهو يراقِبُ الوظيفة التي تشغَلُها الكلمة في التركيب: أهيَ فاعل، أم مفعول، أم مبتدأ، أم خبر...، فالعنصرُ النَّحْويُّ يُساعِد على فَهْم وظيفة كلِّ كلمة في التركيب؛ لأنه يهتمُّ بدراسة العَلاقات المُطَّرِدة بين الكلمات في الجملة والوصول إلى معناها ودلالتها(3)

وإذا ما استطاع الدارس أن يُحلِّلَ الجملةَ، وأن يفهمَ مُكوِّناتها، فإنه يأمَن اللبس، والإعرابُ في اللغة العربية يقوم بدورٍ رئيس في تحديد الوظائف النَّحْوية للكلمات، مِن خلال حركاته التي

تُفرِّق بين كلمة وأخرى بالاشتراك مع العنصر الصرفي الذي يُميِّز الاسمَ من الفعل والحرف، اقرَأ الآية الكريمةَ الآتيةَ :﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾]التوبة: 3]، فهذه الآية – كما ذكرنا – أخطأ في قراءتِها كثيرون، ولعلَّ خطأهم كان ناتجًا عن عدم فهم التركيب، وعدم القدرة على فهم الوظائف النَّحْوية للكلمات، وقد أخطأ بعضُ العرب قديمًا في ضبطها فعطفوا (رسوله) على المشركين ، فكان المعنى أن الله بريءٌ مِن المشركين ومن الرسول صلى الله عليه وسلم أيضًا! وهذا لم يردْهُ الله تعالى ولن يريده .

لهذا يمكن القولُ: إن ظهورَ النحو كان بباعثٍ ديني، يتجلى في حرص المسلمين على قراءة القرآن الكريم قراءةً سليمة وفَهْم دَلالته، وخاصةً بعد فُشُوِّ اللحن الذي أخذ في الظهور منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كما أشرنا، غير أن اللحنَ كان نادرًا في صدر الإسلام، وكلما تقدَّمنا منحدرين اتَّسع شُيُوع اللحن في الألسن، خاصةً بعد تعريب غيرِ العرب...، وكل ذلك وغيره جعل الحاجةَ ماسةً إلى وضع تقعيد يُعرَف به الصواب مِن الخطأ في الكلامِ خشيةَ دخول اللحن وشيوعه في تلاوة آيات الذِّكر الحكيم، هذا دفع إلى التفكيرِ في وضع النحو وتقرير قواعد تنتظم في قوانين قياسية من استقراء دقيق للعبارات والتراكيب الفصيحة وأوضاعها الإعرابية.

وقد اختلفت الآراء فيمَن نُسِبت إليهم الخطوات الأولى في وضع النحو العربي:

يقول السِّيرافي: اختلف الناس في أولِ مَن رسم النحو، فقال قائلون: أبو الأسود الدؤلي، وقيل: هو نصر بن عاصم، وقيل: بل هو عبدالرحمن بن هرمز، وأكثر الناس على أنه أبو الأسود الدؤلي.

الهوامش :

(1) – ابن خلدون، المقدمة، تح: علي عبدالواحد وافي، ط3، القاهرة: د ت، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ج3 ص 1268.

(2) – ابن السراج، أبو بكر، محمد بن السري بن سهل، ، الأصول في النحو، تحقيق: د. عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ط 1، ص : 36 .

(3) محمود السعران: علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، بيروت، دار النهضة العربية، د. ت، ص 233.